الفصل الرابع

السمات العامة للأخلاق الإسلامية

مقدمة :

اهتم الإسلام بالأخلاق الحميدة واعتبرها الأساس الذى تستند إليه كل معاملات الإنسان مع خالقه ومع نفسه ومع الآخرين . ولقد امتدح رب العزه نبيه الكريم ووصفه بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وقد جاء الإسلام بكل خلق حسن وحث المسلمين على التحلى به .

لقد قال أكثم بن صيفى من حكماء العرب فى دعوته لقومه إلى الإسلام « إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

ولقد أولى الإسلام التربية الخلقية للفرد والمجتمع أهمية كبيرة ، ويذكر الامام الغزالى أن ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم تتعلق بالأخلاق وحدها ، وقد صنف الغزالى الآيات التى تتعلق بالأخلاق فى القرآن الكريم إلى قسمين : قسم يتصل بالأخلاق النظرية . وعدد آياته ٧٦٤ آية قرآنية وقسم ثان يتصل بالأخلاق العملية والسلوك وعدد آياته ٧٤١ آية قرآنية ومجموع آيات هذين القسمين معاً ١٥٠٥ اية تمثل فى مجملها ربع آيات القرآن تقريباً . كما أن السنة الكريمة قد اهتمت بها بما جاء على لسان النبى (ص) . ومن أقواله (ص) :

- إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .
- الإسلام حسن الخلق .
- أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً .
- المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
- خير الناس أنفعهم للناس .

السمات العامة للأخلاق الإسلامية :

من الطبيعى أن تستمد الأخلاق الإسلامية سماتها العامة من حكمة الشريعة الإسلامية وخصائصها الرئيسية العامة . من هذه الخصائص :

المثالية :

فالشريعة الإسلامية مثالية لأنها أتم الديانات السماوية وأكملها . قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وقال تعالى « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » . ومن هنا كان على الأخلاق الإسلامية أن تنشد المثل الأعلى فى القيم الأخلاقية والسلوك الإنسانى . واستهدفت تربية الإنسان لبلوغ الكمال بالتدريج . وهو كمال يقتضيه تشريف الله عز وجل للإنسان بأنه فضله على كثير من خلقه وجعله خليفته فى الأرض وجعل الملائكة تسجد له . كما أن الأخلاق الإسلامية قد وضعت أهدافا سامية ومثلاً رفيعة وغايات نبيلة يعمل الإنسان علي الوصول إليها فى سعيه الدائب فى الحياة . ولهذا يقول الراغب الأصفهانى فى تفضيل النشأتين (ص ١٥٢) : « بأن الإنسان المطلق هو نبى كل زمان » . ويعلق الدكتور عبد المجيد النجار على هذه الفكرة فيقول إنها فكرة مماثله لفكرة رائجة عند الصوفية وهى فكرة الإنسان الكامل . ويقصد بها ذروة الكمال فى الانسان . وهى المتحققة فى الأنبياء والرسل أو فى ورثتهم عند انقطاع الرسل (نفس المرجع)

الواقعية :

إن الشريعة الإسلامية فى مثاليتها لا تنسى الواقع حتى لا توصف بالخيال لأن المثال بدون واقع ضرب من الخيال أو الفكر المجرد . فهي تراعى جانب الواقع والتطبيق عملاً بقوله تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . ولذلك قامت التكاليف الإسلامية وأمور العبادات على أساس اليسر والسهولة والمقدرة فى أدائها والقيام بها ، وتجنيب الإنســان المشقة والضيق والحرج . قال تعالى فى سورة الحج « وما جعل لكم فى الدين من حرج » . وقال (ص) « بعثت بالحنيفية السمحاء » إشارة إلى قوله تعالى « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً » . ومن واقعية الشريعة الإسلامية أن الضرورات تبيح المحظورات كما أنها تراعى مواطن الضعف فى الطبيعة الانسانية ولا تحاسب الإنسان على الأعمال التي تقع خارج نطاق إرادته . قال (ص) : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وهكذا جاءت الأخلاق الإسلامية لتتمشي مع فطرة الانسان التى فطره

الله عليها . ومن واقعية الأخلاق الإسلامية التوسط والاعتدال فى كل الأمور تمشيا مع روح الشريعة الإسلامية . قال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » . فلا ضرر ولا ضرار ولا إفراط ولا تفريط ولا تبذير ولا تقتير . قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . والأخلاق الإسلامية أخلاق وسطية بين الدين والدنيا . قال (ص) : إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . فأخلاق الإنسان المسلم هى أخلاق توسط واعتدال بين أمور الدنيا وأمور الآخرة والأخذ من كل بمقدار فى حدود ما رسمته الشريعة السمحاء .

ومن واقعية الأخلاق الإسلامية ثلاثية الجزاء وهى الثواب والعقاب والتوبة . والجزاء فى الإسلام من جنس العمل . فهناك الثواب للمحسن على حسن ما فعل. وهناك العقاب للمسئ على سوء ما بدر منه . وهناك باب التوبة مفتوح للمخطئ الذى عرف خطأه وندم عليه ويريد أن يتوب الله عليه ويعود إلى الطريق السليم . وقد ورد عن النبى (ص) : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». كما أن الله عز وجل قد وصف نفسه بأنه التواب الرحيم . ووعد عباده بالتوبة والغفران لهم إن هم عادوا إلى رشدهم وندموا على فعلهم واستغفروا ربهم . قال تعالى « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » . والواقع أن الشريعة الإسلامية تنفرد بين الشرائع السماوية بهذه الثلاثية الجزائية فى الأخلاق . فهي سمة مميزة للأخلاق الإسلامية .

العمومية :

فالشريعة الإسلامية عامة لكل البشر وكل الإنسانية باعتبار أن الإسلام آخر الأديان السماوية . وهى لا تقتصر على فئة معينة من الناس كالعرب مثلا وإنما للناس قاطبة من فرس وعجم . وفى ظل هذه العمومية يتساوى جميع المسلمين . فالمسلمون كما قال (ص) : تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » . وقال (ص) « الناس سواسية كأسنان المشط فى المساواة » . وقال أيضا (ص) : الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب » . وقال (ص) يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لافضل لعربى على عجمى ولا

لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . فلا عنصرية فى الإسلام ولا تمييز عرقى بين أبناء المسلمين . وانما المفاضلة بينهم فى التقوى وهى خشية الله والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وهذا يعنى أن الأخلاق هى أساس المفاضلة بين البشر فى الإسلام.

التطابقية » أو « التطابق » :

أىْ مطابقة القول للفعل وباطن السر لصدق العمل . وهذا هو لب الإيمان فى الإسلام . فقد ورد عن النبى (ص) عندما سئل عن معنى الإيمان أنه قال فى رده « هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل » . وقال (ص) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى » . والنية مكنونة ومستترة لا تظهر إلا فى العمل ولذلك يعتبر السلوك الظاهرى دالا على النوايا الداخلية وقد تكون النية غير متطابقة مع العمل . عندها تختلف النظرة إلى السلوك الأخلاقى فإذا كانت النية خيرة وجاء التصرف سيئاً بحسن نية فيه فله أجر تطبيقا للمبدأ لكل مجتهد نصيب وله أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ . أما اذا كانت النية سيئة والتصرف فى الظاهر خير فيكون جزاؤه ، الحرمان من أى أجر لسوء نيته . فالكريم الذى يتبرع بماله حباً فى التظاهر والتفاخر وهو يدعى أنه يعطف على الفقراء لا يتسحق أجراً على كرمه لأنه لم يبيت النية الخالصة والعزم الصادق على الفعل . فمظهره غير مخبره. وعلى هذا يمكن القول بأن الأخلاق فى الإسلام تعتمد على غاية السلوك ونيته المبيتة وعلى نبل الوسيلة وشرفها . فالغايات والمقاصد النبيلة تتم بالوسائل الشريفة ويكون العمل الخلقى نتيجة منطقية للغايات فى ارتباطها بوسائلها . كما أن النظرة الأخلاقية الإسلامية لا تنظر إلى نتائج الفعل أو مترتبات الحدث أو السلوك على أنها المعيار للحكم على السلوك الأخلاقى كما تذهب بعض الفلسفات المادية أو النفعية أو البراجمانية . وإنما تنظر إلى النتائج فى ارتباطها بالمقاصد وأساليب تحقيقها أى بالغايات والوسائل . فإذا كان الغنى أو كسب المال هدفاً فلابد من أن يتحقق أو يتوصل إليه بالوسائل الشريفة لا بالسرقة أو الإبتزاز . والأخلاق الإسلامية فى هذا لا تتفق مع الأخلاق الميكافيلية التى تقول

بأن الغاية تبرر الوسيلة كما أشرنا . وهو مبدأ لايمكن أن يقبله على الإطلاق إلا النفعيون والإبتزازيون والديماجوجيون . إنها باختصار أخلاق الوصوليين الذين يمقتهم الإسلام .

الوازع الداخلى أو نداء الضمير :

مع أن القرآن الكريم لا يستخدم كلمة الضمير إلا أنه يشير إليه على أنه إحدى قوى النفس . وقد أشار القرآن الكريم إلى النفس اللوامة والمطمئنة والأمارة بالسوء . وسواء كانت هذه النفوس نفوساً منفصلة كما يرى البعض أو قوى لنفس واحدة كما يرى البعض الآخر فالمهم هى أنها كلها توضح احوال الانسان الداخلية. ويندرج تحت ذلك أيضا ما ورد عن النبى (ص) من قوله : « استفت قلبك » أى شعورك الداخلى . فالقلب نستخدمة فى كلامنا العادى على أنه محل العاطفة الرحيمة أو القاسية فنقول قلب كريم أو رحيم أو شفوق أو قلبه قاسى كالحجر . كما أننا نستخدم العقل ومكانه الرأس أو المخ فنقول عقله كبيراً أو رزين أو راجح أو مخه كبير أو راجح . وقد رد عن النبى (ص) أيضاً قوله « ما حاك فى الصدر » ويقصد به ما يعتمل فى النفس الداخلية للإنسان . وتعبير الصدر هنا وهو ما يعلو البطن يقصد به أهم جزء فى جسم الانسان ففيه القلب وفيه المشاعر والخلجات النفسية . وفيه أيضا ما نتعارف على تسميته بالضمير الإنسانى أو الوازع الداخلى . ووظيفة النفس اللوامة هى إحدى وظائف الضمير الذى يعبر عنه بالشعور بالندم ووخز الضمير على فعل أقدم عليه الانسان وأحس بخطئه بفعله . والنفس المطمئنة تمثل الضمير فى حالة استقراره وارتياحه لما فعله صاحبه . أما النفس الأمارة فهى محراك الشر فى داخل الإنسان وهى رسول ابليس فى داخل الانسان .وهى التي تجره إلى الأهواء والنزوات وأفعال الشر. وقد امتدح القرآن الكريم الانسان الذى ينهى نفسه عن الهوى ووعده بالمأوى فى الجنة . قال تعالى فى سورة النازعات : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الله رقيب على العباد يحاسبهم على أعمالهم وهو مطلع على كل ما يقومون به في السر والعلن. وفى هذا حث كبير للمسلم على تحكيم ضميره وعلى تطابق أعماله مع أقواله ونواياه .

نظام كامل للآداب الإسلامية :

تتميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع السماوية بشمولها لنظام كامل للآداب الأخلاقية والسلوكية التى تنظم الحياة الاجتماعية وتوجه سلوك الفرد فى كل مناحى الحياة . وقد أشرنا إلى كثير من هذه الآداب فى أماكن متفرقة من هذا الكتاب . ويهمنا هنا أن نشير بصفة عامة موجزة إلى بعض آداب الحياة اليومية التى تتصل اتصالاً مباشراً بمعيشة الناس وتعاملهم . فهناك آداب الحديث الذى يحثنا عليه ديننا الإسلامى . وهو أدب يقوم على تأدب الاسلوب وحسن اختيار ألفاظه ومعانيه لدرجة أن الكلمة الطيبة تعتبر صدقة فى الإسلام . قال (ص) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال رب العزة فى سورة البقرة « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »وقال فى سورة الحج «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط حميد » . وقال فى سورة الاسراء « فقل لهم قولاً ميسوراً » . وهناك آداب المشي فى الطريق . قال تعالى فى سورة لقمان « ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور .واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وهناك حق الطريق بإماطة الأذى عنه وتطهيره من كل ما يشينه ويعيبه . وهناك آداب المأكل والمشرب فأباح لنا الطيبات من رزق المأكل والمشرب ونبهنا إلى أن الطعام للقيمة لا للذة وأن كثرة الطعام والشراب مضرة بصحة الإنسان وهذا ما يؤكده العلم والطب الحديث . وهناك حق الجار وحق الصديق وحق الرحم وحق الأهل وحق المجتمع وحق الانسانية وحق الله . ولكل منهما آداب يجب أن تراعى وأخلاقيات يجب أن تتبع . ومن لا يراعى هذه الآداب ويتبع هذه الأخلاقيات يكونون فى زمرة من وصفهم رب العزة بقوله « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » .

آداب المأكل والمشرب والملبس وبعض الآداب العامة :

وضع الإسلام للمأكل والمشرب والملبس آداباً كما وضع آداباً عامة ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم . كما ينبغى على كل مسلم أن ينشئ أولاده وأهله عليها .

فمن الآداب العامة فى كل هذه الأمور الاتزان ، والاعتدال ، وعدم المبالغة فيها ، أو التباهى بها ، أو التنافر . فقد ورد فى الأثر « حسب ابن آدم من طعامه لقيمات يُضمن صلبه » . و « ما ملاء ابن آدم وعاء شراً من بطنه » . و «جوعوا تصحوا » و « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع » . وقد حثنا على أن نراعى مطعمنا وشربنا ألا نملأ معدتنا بالطعام حتى لا نصاب بالبطنة وهو مرض يصيب المسرفين الجشعين فى الطعام والشراب ، وأن نراعى أن يكون ثلث معدتنا للطعام وثلث للشراب وثلث للتنفس . كما أن الانسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل قال ابن قدامة « شهوة البطن من أعظم المهلكات وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة . ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة فى المال ، ويتبع ذلك آفات كثيرة كلها من بطر الشبع . وهذا يذكرنا بما ورد فى الأثر عن جماعة من الناس « قوم إذا جاعوا سرقوا واذا شبعوا زنوا » .وبالنسبة للملبس أو اللباس فالغرض منه ستر العورة وحماية الجسم ويجب أن يتخير المرء من اللباس ما يحقق هذا الغرض بدون إسراف أو رغبة فى التفاخر وأن يتخير لنفسه ولأهله من اللباس ما لا يرهقه بالمال أو لا يقدر عليه فالمثل يقول « على قدر لحافك مد رجليك » .

ومن الآداب التى نادى بها علماء المسلمين فى تربية الأطفال الصبية على آداب الطعام أن نعودهم منذ البداية إذا جلسوا على مائدة الطعام ألا يبادروا أو يسرعوا إلى الطعام بل عليهم أن ينتظروا حتى يجتمع شمل الجميع ويبدأون جمعاً فى الأكل ما . كما لا ينبغى لهم ألا يقبلوا على الطعام بنهم أو شره أو أنانية ولا يأخذوا منه إلا كمية قليلة تقل عن حاجاتهم فإذا أرادوا المزيد فليتزودوا بحيث لا يتركون فائضا من الطعام فى طبقهم أو أمامهم . وعليهم ألا يبلعوا الطعام أو يزدردوه إزدراداً بل عليهم أن يحسنوا مضغه لأن فى جودة المضغ تسهيل لهضمه. ولا ينبغى للأطفال أو الصبية أن يديموا ا النظر فى أنواع الطعام الموجودة أمامهم وأن يتناولوا منها ما هو أقرب إليهم وألا يزاحموا أحداً آخر اذا كان قد سبقهم إلى نوع من الطعام . بل عليهم الانتظار قليلاً حتى ينتهى من سبقهم ويأتي دورهم . وينبغى على الصبى ألا يحدث صوتاً أثناء الأكل أو أثناء مضغ الطعام

أو أثناء شرب الماء وأن يصغر لقمته بمقدار فمه ولا يملأ فمه بالطعام المتواصل وتوالى اللقم بسرعة بل ينتهى أولاً من مضغ ما أكل وبلعه ثم يبدأ تناول غيره . وينبغى على الصبي أيضا ألا يلطخ أو يوسخ يده أو فمه أو ثوبه بالطعام لأن هذا يثير اشمئزاز الجالسين معه ولو كانوا أهله وإخوته . وينبغى ألا يلحظ من يؤاكله ولا يتتبع بنظره مواقع يده من الطعام وأن يؤثر غيره بما يليه وإن كان أفضل مما عنده وأن يضبط شهوته ويقتصر على أدنى الطعام . وينبغى أن يربى الصغير على أن الطعام يراد به صحة الجسم للعيش لا لذة الطعام والإسراف فيها . لأننا نأكل لنعيش ولا نعيش لنأكل . ويرى بعض علماء المسلمين أن تكون الوجبة الرئيسية هى العشاء وليست الغذاء كما تجرى العادة لأن ذلك يساعد على عدم الكسل أو النوم أثناء النهار . كما يرون أن من الأنفع للصبى عدم الاسراف فى أكل اللحم أو الحلوى لأن الإكثار منها يضر الجسم كما أنه يعود الصبى النهم والشره ومحبة الأكل . وينبغى أن يعود الطفل على الأكل فى مواعيد منتظمة كما ينبغى أن يقتصر جهد الطاقة فيما يدخل بطنه من أطعمة أو حلوى أو مشروبات بين الوجبات أو بين كل أكلة وأخرى . وينبغى أن يبدأ طعامه بالبسملة وينهيه بحمد الله وشكره والدعاء بإدامة النعمة من الله . كما ينبغى عليه أن يستخدم يده اليمنى فى الأكل لقوله (ص) ينصح غلاماً : « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » . وينبغى أن يغسل يديه وفمه بعد الأكل ويفضل أن يستخدم السواك أو الفرشاة لتنظيف أسنانه بعد كل وجبة لا سيما بالليل وفى أول الصباح . وبالنسبة للباس والزينة فيجب أن يقتصد الصبى فيها على قدر الحاجة ولا يتشبه بالنساء فى اللباس أو لبس الخواتم أو السلاسل أو الساعات الذهبية أو المصنوعة من الذهب أو الجواهر الثمينة أو ما يوحى بحب الظهور أو التفاخر . ولا يجب أن يفتخر الصبى على أقرانه بأى شئ يملكه بل يجب أن يكون متواضعا مع كل من يعامله من الرفاق . كما ينبغى أن يعود الصبى على عدم ترك شعره طويلا بل يبادر إلى قصه وحلاقته كما يقص أظافره ويقلمها أيضا كلما طالت .

ومن الآداب العامة الأخرى التى ينبغى تعويد الطفل عليها أن يعود على

طاعة الله وطاعة والده ومعلميه ومؤدبيه بيه وأن يمنع من الكذب وعدم الحلف صادقاً أو كاذباً وأن يتعود الصمت وقلة الكلام ويكون كلامه للرد أو الجواب دون لغو فى القول ، وأن يمنع من السب والشتم واللعن ، وأن يعود التأدب والوقار والاحتشام والتواضع ، وأن يحترم ويوقر من هو أكبر منه وأن يعطف على ، ويرحم من هو أصغر منه وأن يعود خدمة نفسه ومن هو أكبر منه . وأن نربيه على الإيثار لا الأنانية وحب الذات . كما نربيه على السعى فى الخير وأداء الواجب وعدم التقصير فيه ومراعاة حقوق الغير كالجار والصديق والفقير والمريض والمحروم واليتيم والضعيف وما شابه ذلك .

ويجب أن يحبب إلى الصبى العلم وتلقيه والحرص عليه وأن نطالبه بحفظ ما تيسر من القرا الكريم وجيد الشعر والنثر ومحاسن الأخبار وسير العظماء . وعلى الأهل والآباء أن يمتدحوا فى الصبى كل ما يبدو منه من فعل جميل وخلق نبيل وسلوك حسن وأن يكرموه ويكافئوه عليه . وفى حالة الخطأ أو التقصير لا يجب أن يكاشف به ولا يوبخ عليه ويتغافل عنه لا سيما اذا حاول الصبى أطفاءه وستره كما أشرنا . لأنه عندئذ يكون قد أحس بخطئه ولهذا تترك له الفرصة لتقويم نفسه بنفسه . فإن عاد إلى ذلك وكرره أو لم يحاول إخفاءه وجب توجيهه وإرشاده بطريقة غير مباشرة . ولا يجب أن يستخدم التأنيب أو اللوم أو التفريع أو الضرب لتأديب الصبى لأن ذلك يسبب له بلادة الحس وينمى فى نفسه نزعة التمود والعصيان . ويكون استخدام مثل هذه العقوبات بقدر يسير دون زيادة فى الألم وفى حالة الضرورة وفى نهاية المطاف على طريقة العرب فى العلاج والتى يحددها القول المعروف « آخر العلاج الكَىّ » ويرى بعض علماء المسلمين منهم الغزالى وابن مسكويه أن يؤذن للصبى فى بعض الأوقات بأن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من عناء التعب والتعليم وحضور الدروس وأن يكون لعبه فى غير ألم أو عنف أو تعب شديد . وقد أشرنا إلى ذلك .

التوبة طريق الإصلاح الأخلاقى :

سبق أن أشرنا إلى أن من أهم سمات الأخلاق فى الإسلام فتح باب التوبة والاستغفار كطريق إلى صلاح الأخلاق وتقويم ما اعوج منها . فإلى جانب الثواب

والعقاب كدوافع ايجابية وسلبية للالتزام بالسلوك الأخلاقى هناك باب التوبة الذى يفتح أمام من أخطأ طريق الأمل والرجاء فى العودة إلى صوابه ورشده مرة ثانية وقد خصص لها القرآن سورة كاملة لها هى سورة التوبة . والواقع أن التربية الإسلامية تتميز فى هذه الجوانب الثلاثة : الثواب والعقاب والتوبة عن غيرها من ألوان التربية فى الأديان والمجتمعات الأخرى . قال تعالى فى سورة المائدة « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » . وقال تعالى فى سورة الأنعام « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » . ولقد وصف رب العزة نفسه بأنه تواب رحيم قال تعالى فى سورة التوبة « وأن الله هو التواب الرحيم » . وقال تعالى فى سورة طه « وأنى الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ». وقد تكرر ذلك فى أماكن كثيرة من القرآن الكريم . وهذه المنظومة الثلاثية:الثواب والعقاب والتوبة، توضح كما أشرنا واقعية التربية الإسلامية فى تمشيها مع الطبيعة الإنسانية وما جبلت عليه لأنه بشر من دوافع ونوازع وجوانب ضعف . فالإنسان غير معصوم من الخطأ لأنه بشر . والله سبحانه وتعالى بعظيم حكمته يطمئن هؤلاء التوابين ومن يستغفرون لأخطائهم وذنوبهم بالعفو عنهم والصفح عن أخطائهم وذنوبهم .

معايير السلوك الأخلاقى فى الإسلام :

يحدد الإسلام معايير واضحة محددة للسلوك الأخلاقى من خلال المحللات والمحرمات . فالحلال بين والحرام بين ولكن بينهما أمور متشابهات . والحلال درجات منه ما هو واجب يتحتم على المرء الالتزام به ومنه ما هو مندوب ويتعلق بالأمور التى يثاب الأمر عليها إذا فعلها ولا يعاقب عليها إذا تركها . ومنه ما هو مباح ويتعلق بالأمور التى ترك الإسلام الخيار للمرء بين فعلها وتركها . والأصل فى الأشياء الإباحة ما لم يكن هناك نص يقيدها أو يحرمها . ومن الحلال ما هو مكروه ، ويتعلق بالأمور التى نهى الشرع عنها نهياً غير جازم . ويكون من الأفضل للإنسان تركها .

وهناك عدة معايير لحكم على جانبى الحسن والقبيح أو الخير والشر فى الفعل أو السلوك الأخلاقى من أهمها :

١ - **النية والقصد والإرادة من وراء الفعل والسلوك :** فلكل عمل نية أو قصد وإرادة أو دافع له . وقد قال الإمام الغزالى « إعلم أن النيه والإراداة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد . وهى حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يقدم العمل لأنه أصله وشرطه . والعمل يتبع العلم لأنه فرعه وثمرته . . وكل عمل لا يتم إلا بثلاثة أمور علم وإرادة وقدرة . . ومعنى الارادة إنبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض . ومن هنا يرتبط العمل أو السلوك الأخلاقى بحرية الفرد فى ممارسة وأداء عمله وواجباته من ناحية وبمسئوليته عن استخدام هذه الحرية من ناحية أخرى . والمسئولية ترتبط بالجزاء . كما أن حرية الفرد تدور فى الإطار الاجتماعى فليس هناك حرية فى فراغ . وحرية الفرد تنتهى عندما تبدأ حرية الآخرين . وعلى هذا فإذا كانت النية أو القصد أو الدافع من وراء الفعل حسناً أو خيراً كان الفعل خيراً وحسناً والعكس صحيح . وقد ورد عن النبى (ص) قوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى » .

٢ - **الأثر أو النتيجة المترتبة على الفعل بالنسبة للآخرين :** والسلوك هو الصورة الظاهرة التى تدل على الصورة الباطنة للأخلاق . وهو عمل إرادى متجه نحو غاية معينة . فإذا كانت النتيجة خيراً أو حسنة كان الفعل خيراً أو حنساً والعكس صحيح . والإنسان يتحمل نتيجة عمله وتصرفه عملاً بقوله تعالى فى سورة فاطر « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أى لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . والإنسان هو الذى يأتى أعماله بمحض إرادته واختياره .

٣ - **طبيعة الفعل والسلوك الأخلاقى :** فالفعل أو السلوك الأخلاقى يكون حسناً أو قبيحاً فى ذاته وليس فى شئ خارج عنه . فلكل فعل أو سلوك أخلاقى صفة تجعله حسناً أو قبيحاً . فالصدق صفة ذاتية جعلته حسناً والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحاً . ولذلك يشترك العقلاء فيما يستحسنون أو يستقبحون .

٤ - **أمر الشرع به والنهى عنه :** فالشرع يأمر بالشئ لحسنه وينهى عنه لقبحه .

وقد لا تكون حكمة الحسن أو القبح ظاهرة أو مما يدركه الفعل فى السلوك الأخلاقى مثل النهى عن صوم أيام العيدين وأكل لحم الخنزير . ومع ذلك يجب الالتزام بما أمر به الشرع أو نهى عنه .

شروط القانون الأخلاقى :

هناك عدة شروط تحكم لقانون الأخلاقى والالتزام الخلقى من أهمها :

أ - أن يكون فى استطاعة المرء القيام به على طريقة اذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع . ولذلك لا يسأل العبد عن الأفعال التى تقع خارج قدرته . وقد قال تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » و« لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها » . فالله سبحانه وتعالى لا يكلف عباده بما لا يطيقونه وهذا هو العدل . وعندما يكلف الإنسان انساناً آخر فوق طاقته وفوق قدرته فإن هذا هو الظلم بعينه والله سبحانه وتعالى منزه عليه .

ب - أن الإنسان لا يحاسب على ما يدور فى داخل نفسه من صراع بين الخير والشر والحب والكراهية إلا عندما يترجم شعوره الداخلى إلى فعل خارجى عملى واقعى . وقد ورد عن الرسول (ص) أنه كان يعدل بين زوجاته فى الأمور التى يستطيعها أما فيما عدا ذلك من الأمور التى لا يستطيع أن يسيطر عليها شعورياً أو داخلياً فكان يترك الأمر لله . وقد أثر عنه قوله فى ذلك « اللهم إنى عدلت فما أملك فلا تحاسبنى فيما لا أملك » . يريد بذلك مشاعره وأحساسيه وعواطفه التى لا يمكنه أن يسيطر عليها .

جـ - أن المرء يحاسب على نتيجة فعله ويتحمل مسئولية هذه النتيجة . لأن المرء فى هذه الحالة هو الذى يقـــــوم باختيار الفعل بحريته وعليه أن يتحمل مسئولية ما فعله . لأن الحرية تعنى المسئولية . والمسئولية تعنى الجزاء خيراً أو شراً .

د - من شروط القانون الأخلاقى اليسر لا العسر لأن الدين يسر لا عسر . قال تعالى فى سورة البقرة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال تعالى فى سورة الأنبياء « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وفى سورة

النساء « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » وقال فى سورة الأنفال « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » . وهكذا يكون من شروط القانون الأخلاقى تيسيير وتسهيل مهمة القيام به على صاحبه . فهذه أفضل الطرق لأداء الواجب الأخلاقى .

هـ ـ أن يكون صاحب العمل أو السلوك الأخلاقى عاقلاً مكتمل الصحة والأهلية فليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج ولا على المجنون أو فاقد العقل حرج . لأن هؤلاء يخرجون عن نطاق اكتمال الصحة العقلية والجسمية والأهلية والمسئولية .

و ـ مراعاة حالات الضرورة والحالات الطارئة : فالضرورات تبيح المحظورات فى الإسلام . كما أن الإسلام راعى فى قانون أخلاقه الحالات الطارئة أو العارضة التى يصعب فيها الالتزام بالقانون الأخلاقى . وقد جعل الإسلام لكل حالة مخرجاً . فقد يكون ذلك المخرج بالإعفاء الكلى الكامل للمكلف وسقوط التكليف عنه كما فى حالة فاقد العقل أو المجنون أو المريض مرضاً لا شفاء منه . وقد يكون بالإعفاء الجزئى كما فى حالة قصر الصلاة للمسافر وقد يكون بإرجاء الفعل لموعد أو زمن آخر مثل الصيام بالنسبة للمريض أو المسافر وقد يكون باستبدال أو إحلال عمل يسير بعمل آخر صعب عسير مثل إطعام المساكين فى كفارة الحلف أو اليمين . وهذه المخارج التى أباحها الإسلام للحالات الطارئة إنما هى دليل على سماحة الإسلام ومرونة التشريع الإسلامى وصلاحيته لكل زمان ومكان . ولا ينبغى أن يساء استخدامها للتهاون فى الالتزام الأخلاقى .

ز ـ التدرج فى تحديد الواجبات الأخلاقية : يقول الدكتور محفوظ على عزام فى كتابه عن الأخلاق فى الإسلام بين النظرية والتطبيق (ص ٣٤ ـ ٣٦) إن الإسلام رتب الأعمال الخلقية إلى ما هو لازم وما هو ألزم . فألزمها فرض العين ثم فرض الكفاية ثم الواجب ثم السنة المؤكدة ثم السنة غير المؤكدة ثم النوافل وأخيراً الكماليات . كما رتب الإسلام المحرمات والشرور إلى كبائر وصغائر ومكروهات وخلاف الأَولَى . ثم قسمها من ناحية أخرى

من حيث الواجبات المحدودة وغير المحدودة والمؤقتة وغير المؤقتة . وحدد مسافة بين الخير والشر ، لا هى خير ولا هى شر ، وهى المباحات . وأحد طرفيها متصل بالخير والآخر متصل بالشر . وأمر الناس بالاتجاه إلى الخير بالابتعاد عن الشر .

الإسلام يعترف بضعف الإنسان :

اعترفت الأخلاق الإسلامية بموضع الضعف فى طبيعة الإنسان ومنها الخطأ والنسيان والاستكراه . ولا يحاسب المسلمون على الأعمال التى يمليها عليهم هذا الضعف . وقد ورد عن النبى (ص) قوله : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . والإسلام يخفف عن المسلم فى حالة ضعفه . . « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفـــــاً » . و « لا يكلف اله نفساً إلا وسعها » . يقول الشاعر :

ما سمى الإنسان إلا لنسيه . . ولا القلب إلا أنه يتقلب

واعترف الإسلام بجوانب أخري من ضعف النفس الإنسانية قال تعالى « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ».وهـــــذه النفس إذا ضعفت قد تدفع الإنسان إلى الشر « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » . كما وصف القرآن الإنسان بكثير من الصفات التى تدل على ضعفه . قال تعالى : (وخلق الانسان ضعيفاً) . وليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج ولا على فاقد العقل حرج ولا على النائم حرج .

ويقول الماوردى : « إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله أكثر حاجة من جميع الحيوان ؛ لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه . والإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه » . كما وصف الإنسان بالهلع والجزع إذا مسه الشر وبالطغيان اذا غنى « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن الإنسان خلق هلوعاً . اذا مسه الشر جزوعاً . واذا مسه الخير منوعاً » . وهذا يعنى بالنسبة للتربية الإسلامية أن يهتم المعلم بأن يبرز لتلاميذه أن قدرة الإنسان محدودة مهما تقدم ومهما بلغ من العلم وأنه مهما بلغ من القوة لا يخلو من نقاط ضعف . قال تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . ولهذا ينبغى أن يعرف الإنسان حدوده وألا يتكبر وأن يكون متواضعاً وأن يصبر على المكاره كما يجب أن يتذكر

نعمة الله عليه ويشكره فى حالة اليسر والرخاء .

كمال النفس بالتربية :

إن الإنسان لا يصبح إنسانا إلا بالتربية : ولا يحقق كمال نفسه وذاته إلا بالتربية ، ويقول الغزالى (الإحياء:ص٣، ص ٥٩) : وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوي بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال . وإنماتكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

وهو يعتبر أن الجهل من أمراض النفس وعلاجه بالتعلم كما أن علاج مرض الكبر يكون بالتواضع وعلاج مرض البخل بالتسخي . فعلاج كل مرض بضده ويورد مثالاً طريفاً يحكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب بأن يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة حتى يضرب به المثل . ونحن فى زماننا لا نحتاج إلى تأجير من يقوم لنا بذلك فنحن نصادفه ونتعايش معه كل يوم وعلينا أن نستفيد منه فى رياضة نفوسنا وكظم غيظنا مع توفير فلوسنا . فهذه خدمة أخلاقية مجانية يقدمها مجتمعنا المعاصر لمن أراد إلي ذلك سبيلاً .

إن العلم من كمال النفس الإنسانية لكنه وحده لا يكفى ولابد أن يكتمل كمال النفس بتربيتها الأخلاقية . وقد عبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

لا تحسبن العلم ينفع وحده . . ما لم يتوج ربه بخلاق

فالعلم والخلق مهمان لكمال النفس ويقول ابن خلدون فى مقدمته (ص ٢٧٤) اذا فسد الإنسان فى قدرته على أخلاقه ونيته فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة .

مراحل التربية الخلقية :

يميز علماء المسلمين بين مرحلتين رئيسيتين فى التربية الأخلاقية للطفل ، المرحلة الأولى ويسمونها بمرحلة « التخلية » أى تخلية طبع الطفل من كل رذيلة وإبعاده عن كل مؤثرات الشر والسوء وعدم مخالطته لقرناء السوء . فقد نهانا الرسول عن قرناء السوء فقال : « إياك وقرين السوء » وقال (ص) « لا تصاحب الفاجر فتتعلم فجوره » وقال « إن الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة التحليلة والتزكية ويقصد بها تحلية الطفل بالفضائل الكريمة والأخلاق المحمودة عن طريق تشربه لهذه الأخلاق واكتسابه العادات الحسنة من مخالطته للقدوات الصالحة . والمسلم الكامل هو الذى اكتملت أخلاقه بإكمال دينه وإيمانه . يقول الرسول (ص) : « خيركم إسلاماً أحاسنكم أخلاقاً إذا فقهوا » . يضاف إلى ذلك أيضاً ما قلناه عن التربية الإسلامية باعتبارها تربية متدرجة .

معرفة الإنسان لنفسه :

يقول الأصفهانى فى كتابه تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص ٦١) إن أول شئ يلزم الإنسان معرفته نفسه . وقد احتلت معرفة الإنسان نفسه مكانة كبيرة في الفكر الفلسفى والعقائدى . قديماً اتخذ سقراط لنفسه شعاراً « أعرف نفسك بنفسك » ولذلك يقال إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أى الاهتمام بالنفس بدلاً من الغيبيات . وقالت بعض فرق المتكلمين الإسلاميين منهم الأشاعرة إلى أن أول ما يجب على الإنسان معرفة الله . ويقول الأصفهانى ليس هناك تناقض بين القولين « معرفة النفس ، ومعرفة الله » لأن من عرف نفسه فقد عرف الله .فقد روى أن ما أنزل الله كتاباً إلا وفيه اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك .

ولمعرفة الإنسان لنفسه جوانب متعددة من أهمها (الأصفهانى : تفصيل النشأتين ص ٦٢ - ٦٦) :

١ - ان الإنسان من خلال معرفته لنفسه يتوصل إلى معرفة غيرها ومن جهل نفسه جهل كل ما عداها . لأن نفس الإنسان مجمع الموجودات ومن عرفها يعرف حقائق هذه الموجودات فانيها وباقيها وحقيقة السموات والأرض . قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ».

٢ - أن من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيه المشار إليها بقوله عليه السلام « أعدى عدو لك نُفيســـة بين جنبيك » .

٣ - أن من عرف نفسه عرف أن يسوسها ، ومن أحسن سياسة نفسه أحسن سياسة العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين فى قوله تعالى (ويستخلفكم فى الأرض) .

٤ ـ أن من عرف نفسه لم يجد عيباً فى أحد إلا رآه موجوداً فى ذاته إما ظاهراً أو كامناً فيه كمون النار فى الحجر . فلا يكون همازاً ولمازاً وعياباً .

طرق معرفة الإنسان لعيوبه :

يقول الغزالى إن الله عز وجل اذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه ويورد طرقاً أربعة لعمل ذلك :

الطريقة الأولى : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدتها وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه . فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . ويعلق الغزالي على هذه الطريقة بأنه قد عز فى الزمان وجودها .

الطريقة الثانية : أن يطلب صديقا صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله . فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه إليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . ويضرب مثلاً بداود الطائى الذى اعتزل الناس ، فقيل له : لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى ؟ وهذا يعنى أن على الناس أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم لهم .

الطريقة الثالثة : أن يستفيد من ألسنة أعدائه فى معرفة عيوب نفسه لأن عين السخط تبدى المساويا على حد تعبير الشاعر فى قوله :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة . . ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه . ويعلق الغزالى على ذلك بقوله إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد . ولكن البصير لا يخلو من الانتفاع بقول أعدائه لأن مساوئه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريقة الرابعة : أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما ، فيما بين الخلق يقيس نفسه عليه . لأن المؤمن مرآة المؤمن . فيرى عيوب نفسه من خلال عيوب غيره . ويعمل على تطهير نفسه من كل ما يشينه ويعيبه . وهذا يعتبر تأديباً له . ولو أن الناس تركوا ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن الأدب . ويورد

الغزالى قول عيسى عليه السلام عندما سئل من أدبك ؟ قال : ما أدبنى أحد رأيت جهل الجاهل شيناً (أى معيباً) فاجتنبته ».(الأحياء جـ٣ص ص٦٢-٦٣) .

الخلق عادة وتعود :

تقوم الأخلاق فى جوهرها على قواعد ومبادئ ثابتة متفق عليها . وقد يكون مصدر هذه القواعد والمبادئ الدين أو العرف والتقاليد أو القانون الوضعى أو ثقافة المجتمع وما يقوم عليه من قيم حضارية واجتماعية . ومن المعروف بالنسبة للمجتمع الإسلامى أن الدين أصل الأخلاق جميعها وأصل قواعدها ومبادئها ولكى يسلك الفرد سلوكاً أخلاقياً مرغوباً عليه أن يتبع هذه القواعد ويلتزم بها ويطبقها فى كل أعماله وتصرفاته . وهذا يعنى أنه يكرر نفس السلوك والتصرف فى نفس الموقف . وبهذا التكرا تتكون العادة الخلقية شأنها شأن أى عادة تتكون لديه بالممارسة والتكرار ، كعادة القراءة مثلا أو السباحة أو الرياضة الجسمية . والعادة كما توجد فى الرياضة الجسمية توجد أيضا فى الرياضة النفسية والخلقية. ومن هنا يصبح الخلق عادة بالتعود . وهى نقطة هامة ينبغى أن يهتم بها الآباء والمربون فى تربيتهم للنشء الصغير . وذلك بتعويدهم على الأخلاق الحسنة منذ الطفولة المبكرة ومحاسبتهم عليها كلما خالفوها حتى تصبح الأخلاق عادات مكتسبة لها صفة الثبات والاستقرار . وعندها تنتظم حياتهم فى إطارها الصحيح. ويمكن الاستفادة فى هذا الصدد بما يقوله علماء النفس عن تكوين العادة . فهم يذهبون إلى أن العادة تتكون بالممارسة والتكرار مع تعزيز السلوك الحسن عند تكراره بالثواب أو المكافأة أولا أو بالعقاب اذا لم يكن طريق الثواب مجديا . ويكون العقاب فى هذه الحالة فى حدود المعقول مع التدرج فى استخدام أساليبه التى تبدأ من التنبيه والتحذير إلى اللوم والتوبيخ إلى الزجر والنهر إلى الحرمان من الميزات إلى العقاب الجسمى فى نهاية المطاف . ويكون هذا العقاب الجسمى بعيدا عن المواضع الحساسة فى الجسم وهدفه التخويف لا التعذيب والإصلاح والتوجيه لا التشفى والانتقام .

الإيثار ضد الأنانية :

تختلف النظرة الأخلاقية من حيث جانب الإيثار أو الأنانية . فالإيثار تفضيل الانسان غيره على نفسه . وقد حثنا الإسلام على الأثرة فى قوله عز وجل فى

سورة الحشر « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » أى يقدمون غيرهم على أنفسهم ولو كانوا محتاجين وقوله عز وجل فى سورة آل عمران « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . والإيثار صفة خلقية محبوبة لأنها تعزز الروابط الإجتماعية بين الناس وتحقق التراحم بينهم . وقد ورد عن النبى (ص) قوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وفى مأثور الحكم : « ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط . وقد عبر عن ذلك الشاعر العربى أبو العلاء بقوله :

فلا نزلت على ولا بأرضى . . سحائب ليس تنتظم البلادا

وقد ضرب صحابة الرسول (ص) أمثلة رائعة فى الإيثار سطرها التاريخ . ومن الأمثلة الفذة ما يرويه القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن (حـ ١٨ ص ٢٨) عن الحذيفة العدوى فى قوله : « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ، ومعى شئ من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته . فإذا أنا به . فقلت : أسقيك؟ فأشار برأسه أن : نعم . فاذا أنا برجل يقول آه آه ! . فأشار إلى ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن : نعم . فسمع آخر يقول : آه آه ! فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات . فرجعت إلى ابن عمى فاذا هو قد مات » . وهكذا لم يشرب أحدهم الماء لإيثار كل منهم صاحبه عليه . والإيثار كقيمة أخلاقية يعتبر من أنبل الأخلاق وأفضل المكارم الإنسانية . أما الأنانية فهى صفة أخلاقية مرفوضة لأنها تقوم على حب الذات وتمركز الشخص حول نفسه ومصلحته بصرف النظر عن الآخرين . فلا يهم الفرد إلا مصلحته هو وليمت الآخرون . وقد عبر الشاعر العربى عن هذه الصفة الأنانية التى تشينه بقوله : « إذا مت ظمآن فلا نزل القَطْر» أى المطر . فهو يدعو بألا يعم الخير على الآخرين إذا هو لم يصبه هذا الخير أولا . وهذه أنانية بغيضة نهانا عنها ديننا الحنيف .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن الفيلسوف الفرنسى المعروف أوجست كونت يتمشي مع الإسلام فى هذه الناحية وإن كان يغلب جانب الآخرين . ذلك أن مبدأه الأخلاقى يقوم على أساس الشعار الذى وضعه لنفسه وهو : « عش من أجل

غيرك » . وهو يرى أن الحب هو المبدأ ، والنظام هو القاعدة ، والتقدم هو الغاية» . وهو يختلف عن الفيلسوف الألماني « كانظ » فيما ذهب إليه من أن العواطف مفسدة للجانب الأخلاقى وإن كان كونت يتفق فى تجريد الأخلاق من كل اعتبار يقوم على المنفعة والمصلحة . ويرى كونت أن رقة العاطفة هى منشأ الحب ومصدره ، وأنها هى التى يجب أن ينتظر منها الجميع ألوان التراحم والتعاون والتضحيات . وهى التى يجب أن تنمى فى قلب الطفل منذ أيامه الأولى . واذا كانت المرأة هى أفضل صورة للإنسانية كما يقول كونت ـ فذلك لأنها هى أرق النوعية الإنسانية عاطفة وأوفرها حنوا (كريسون : ص ٢٥٢) .

إن « كونت » يتشدد فى مذهبه الداعى إلى حب الغير وإيثار الآخرين لدرجة أنه يحرم على المربى أن يطرى فضيلة ، كائنة ما كانت ، بسبب ما يمكن أن يجنيه الفرد من فائدة من ورائها . ويضرب لذلك مثالاً للطفل الذى يقال له : كن نظيفاً لتحافظ على صحتك . والأولى أن يقال له : كن نظيفا لتحافظ على صحة ونظافة المجتمع وحتى لا يتأذى بك الغير . ويضرب مثلاً آخر عندما يقال للطفل اجتهد لكى تكون من العظماء وذوى الرفعة والمكانة . والأولى فى نظره أن يقال له اجتهد لكى تكون عضوا نافعاً للمجتمع والإنسانية . ويرى كونت أن أى مسلك أخلاقى يخالف ذلك يكون خدعة فى طيها جناية (كريسون : ص ٢٥٤) ويبدو من هذه النظرة الأخلاقية أن « كونت يغرق بل يبالغ فى تأكيد الجانب الاجتماعى وتغليبه على الجانب الفردى . وفى هذه النقطة بالذات نجد أن النظرة الإسلامية تختلف . فهى وإن أكدت أهمية جانب المجتمع والإنسانية بصفة عامة فإنها لا تغفل أيضاً جانب الفرد . فإذا عدنا للمثال السابق وهو مثال الطفل ، نجد أن النظرة الإسلامية تجمع بين قولنا للطفل كن نظيفاً لتحافظ على صحتك وبين كونه نظيفاً ليحافظ على سلامة المجتمع وحتى لا يتأذى به الغير . وبالمثل يمكن القول فى المثال الثانى الخاص بالاجتهاد ليكون الطفل من ذوى الرفعة وليكون أيضاً عضوا نافعاً للمجتمع والإنسانية . وقد سبق أن أشرنا إلى أن التربية الإسلامية هى تربية فردية واجتماعية معاً . إن الإيثار وحب الغير فضيلة أخلاقية تجلب حب الناس وبالتالى حب الله . أما الأنانية فهى رذيلة ممجوجة لا تجلب لصاحبها إلا الكراهية والنفور وبغض الناس له وبالتالى بغض ربه وخالقه .